.هو شاعر من أعلام الشعراء الأندلسيين في القرنين الخامس والسادس الهجريّيْن

وهو إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة، ويُكنّى بأبي إسحاق، كان شاعرًا معروفًا في وصف الطبيعة، يُنظم أبيات الشعر من باب الهواية وليس لغاية الحصول على مكاسب الدنيا وكنوزها، فكان مميزًا عن باقي الشعراء المعاصرين، قليل الاتصال بالأمراء، غير مائل لشعر المديح والثناء، يترفّع عن الزيف والشهرة وكشف تفاصيل حياته بدقة، ولعل هذا كان السبب في ندرة المعلومات عنه.

مولد ابن خفاجة ونشأته

ولد ابن خفاجة في جزيرة شُقر التي تقع شرق مدينة الأندلس في عام 450 هـ/ 1058 م، وورث عن أهله البساتين والحدائق والمزارع التي عاش بين ربوعها وأزهارها، وفي أحضان الأودية والأنهار والجبال والجمادات التي جعلته يبرز كشاعر الطبيعة، مُنفردًا بلون شعري خاص به، أكسب شعره ميزة فنية غير مألوفة، فكان يقرأ ما في نفوس الجمادات، وكأنها إنس لها خواطر وأحاسيس جياشة برزت في شعره مميز الوصف، وعريق التصوير والتعبير.

التحوّل في شعر ابن خفاجة

أثر مولد ابن خفاجة في جزيرة شقر ذات الطبيعة فيه، وأكسبه ميزته الشعرية المُتغنية بالطبيعة، ولم يرغب بالخروج منها، إلا أن اجتياح الإسبان لشرق الأندلس أجبره على النزوح عن ذلك، وكان لهذا الوقع تأثير عميق هز كيانه، لكنه استطاع العودة إلى الأندلس بعد تحريرها بفضل المرابطين وقائدهم إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين، ليعاود تنظيم أبيات الشعر والقصيد، ويبدأ من نقطة تحول كبيرة في مسيرته أخرجته عن المألوف، وساعدته على الانخراط بتأليف شعر المدائح، وأشهر ذلك؛ قصيدته التي مدح فيها كرم القائد إبراهيم وشجاعته، وبهذا بدأ مرحلة جديدة غيرت طبيعته وميوله، وساعدته على الانفتاح أكثر على مُجتمعه.

سمات الأسلوب الشعري لابن خفاجة

:اتسم ابن خفاجة بشخصية شعرية مميزة، ومن أبرز ميزات أسلوبه الشعري ما يأتي

Scanned with CamScanner

وصف الطبيعة: لُقّب ابن خفاجة بوصّاف الطبيعة؛ نظرًا لغزارة ألفاظه ومُفرداته التي تصف الطبيعة الأندلسية، فكانت مفرداته الطبيعية تُمثل مُعجمًا فنيًا ولغويًا عريقًا، كما أنه ربط الطبيعة بالعبر والعظات المُكتسبة من حياته.

الغزل: يُمثل الغزل غرضًا شعريًا أساسيًا ومتداولًا بين شعراء الأندلس التي امتازت ببيئتها الحضرية، وجمال نسائها وطبيعتها الساحرة، ومن ضمنهم ابن خفاجة الذي تنبهت عواطفه واستقرت أبصاره باحثةً عن الجمال، لينسج كلمات الغزل ويتفنن في وصف جاذبية المرأة التي أسرت واستوطنت قلبه مُستعينًا بالعناصر الطبيعية حوله، ليخط أعذب الأبيات واصفًا سحر وجودها، وتارةً أخرى يذرف الدموع الحارقة شوقًا وحنينًا لها في غيابها؛ إذ إنه يجد الدموع رسائل صادقة وشفيعة للمحبوبة، ناهيك عن شعر العتاب النابع من المرارة وعدم الصبر وقلة الحيلة.

الشوق والحنين: تُهيمن على أشعار ابن خفاجة الأحاسيس المرهفة والعواطف المُضطربة التي ترتبط إلى حد كبير بذكرياته، وأيام صباه وشبابه، وطبيعة حاله في الغربة الكاوية التي أذاقته المر بسبب الفراق، وشخصيته الحساسة الدافئة، وجميعها عوامل تولد لديه حنينًا كبيرًا إلى الوطن، والأصدقاء، والأحباب، والأهل

وفاة ابن خفاجة

توفي ابن خفاجة في جزيرة شُقر بتاريخ 533 هـ/ 1139 م، عن عمرٍ يُناهز 81 عامًا.[٢]

وكان شاعراً مفلقاً ، وأديباً موهوباً ، وكاتباً بليغاً وتطرق إلى جميع الأغراض الشعرية ، لكن غلب شعره في وصف الطبيعة ، فوصف الأشجار والأثمار والحدائق والبساتين ، ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع تهافتهم على أهل الأدب .

كما قال الزركلي : " شاعر غزل من الكتاب البلغاء ، غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة ، وهو من أهل جزيرة (شُقر) من أعمال بلنسية في شرقي الأندلس ، لم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم على الأدب وأهله ، له ديوان شعر "

وقد نشأ وترعرع ابن خفاجة في مهد العلم والفضيلة ، فأقبل على الدرس ، وحفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية ، ودرس الشعر والنثر وعلوم اللغة وتضلع في جميع العلوم الإسلامية ، لكن مال إلى دراسة الأدب والتعمق فيه .

Scanned with CamScanner

شعره :

أما شعره فهو من النوع الوجداني الإبداعي المملوء بالصور والأخيلة ، كما قال أحمد حسن الزيات في وصف شعره : " ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها ، قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة ، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي " .

وطرق شعره إلى جميع الأغراض الشعرية : الغزل والوصف والمدح والرثاء والشكوى والعتاب والفخر ، لكن اشتهر بوصف الطبيعة ومناظرها الجميلة الساحرة ، وفي الجانب الآخر نجد في جميع أغراضه الشعرية لون وصف الطبيعة ، فإذا مدح أو رثى أو تغزل نجد الطبيعة في مدحه ورثائه وتغزله ، وأما وصفه للطبيعة فلا يختلف في ذلك أحد ، وصار أفضل شاعر بوصفه الأندلس .

كما قال المقري : " وهل منكم من برع في أوصاف الرياض وما يتعلق بذلك فانتهى إلى راية السباق وفضح من طمع بعده في اللحاق وهو أبو إسحاق ابن خفاجة " .

هناك عوامل كثيرة لعبت دوراً هاماً في جعله أشهر وصافي الطبيعة وجعله شاعر شرقي الأندلس ، منها ما كان خارجياً ، ومنها ما كان داخلياً ، فالطبيعة الأندلسية بجمالها عامةً ، وما امتازت به جزيرة شقر خاصةً من أنهار وأزهار ورياض وبساتين ، وهذه الطبيعة قد سحرت ابن خفاجة ، واستولت على لبه وعقله بل إن هذه الصلة الوثيقة بها قد أثرت في نفسه أثراً بالغاً ، ويرى الأندلس على أنها جنة الخلد ، فيقول :

يـا أهـل الأنـدلـس لله دركـم مـاء وظـل وأنـهـار وأشجار

مـا جـنـة الـخلد إلا في دياركم ولو تـخيرت هذا كنت أختار

Scanned with CamScanner

لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وهناك باعث آخر قد زاد من إقبال ابن خفاجة على وصف الطبيعة والتغني بها وهو حياة اللهو والمجون وشرب الخمر ومجالس اللهو والطرب ، وهذه الحياة كانت أهم عامل في تطور وصف الطبيعة لديه ، وقد وصف لنا ابن خفاجة هذه المجالس في صورة الأشعار منها ، ما يتغني بمجلس لهو ويصف ما فيه من شراب وروض وماء وحمام :

سقيًا ليوم قد أنختُ بسرحةٍ ريّا تُلاعبُها الشمال فتلعب

سكرى يغنّيها الحمام فتنثني طرباً ويسقيها الغمام فتشرب

يلهو فترفع للشبيبة راية فيه ويسرج للتصابي مركب

ويكرمن كأس المداحة أشقر يجري ويطلع للسلافة كوكب

والروض وجه أزهر والظل فر عٌ أسود والماء ثغر أشنب

ولقد صوّر لنا ابن خفاجة في أشعاره مظاهر الطبيعة الأندلسية من أشجار ورياض ، وأزهار وأنهار ، وحيوانات ونجوم وشموس وأقمار ، فقد تناول في أشعاره ما وقع عليه بصره من بيئته الطبيعية الجميلة ، فأجاد وأبدع فاستحق بوصف لقب الجنان ، ويتناول الباحث بعضاً من أشعاره في وصف الطبيعة ، ومن أجود أشعاره في وصف الأزهار وهو يصف زهرة الخيري ذات المنظر الناعم الهادئ والعبير الفواح العطر الذي يفوح ليلاً فيرسم لها هذه الصورة :

وخيرية بين النسيم وبينها حديث إذا جَنّ الظلام يطيبُ

لها نَفَسٌ يَسرى مع الليل عَاطِرٌ كأن له سرا هناك يريب

يدبُّ مع الإمساء حتى كأنما له خلفَ أستارِ الظلام حبيبُ

ويخفى مع الإصباح حتى كأنما يظل عليه الصباح رقيب

إن الشعراء الأندلسيين مزجوا الطبيعة بشعر الهموم والشكوى ، وهذا أمر جديد ، لكن مزج الطبيعة بالحزن والبكاء عند الأندلسيين أمر عجيب وهذا شيء جديد لا يوجد له نظير في نتاج الشعر العربي .

Scanned with CamScanner

يقول مصطفى الشكعة : " إن ابن خفاجة قد أقدم في جرأة على هذا الضرب الجديد من مزج الطبيعة بالرثاء ، فهل استطاع أن يقدم شيئاً ذا بال من خلال محاولته تلك ، الذي لا شك فيه أن الطبيعة الفينانة تمثل مولد الحياة وبهجتها وغناءها وبسمتها ، والرثاء يمثل نهاية الحياة وآلامها ، وبكاءها والحسرة عليها ، ومن ثم كان الجمع بين الطبيعة والرثاء جمعاً بين نقيضين "

Scanned with CamScanner